

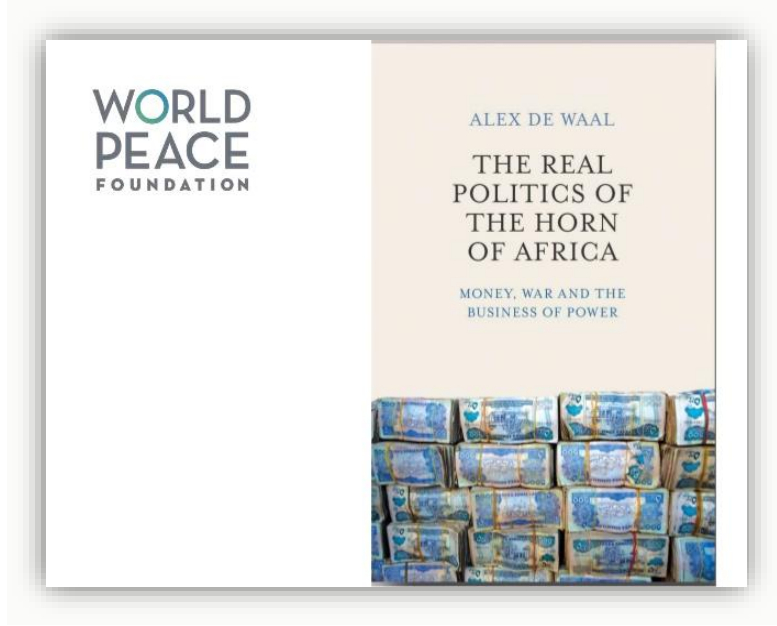
عرض كتاب

السياسة الحقيقية في القرن الأفريقي

المال-الحرب وبيزنس السلطة

«أليكس دي وال»

عرض د. فريدة بندراي



The Real Politics of the Horn of Africa

Money. War and The Business of power

Alex de Waal

والحقيقة أن كتاب «السياسية الحقيقية للقرن الأفريقي» هو كتاب قاسي ومزعج، وله تداعيات عميقة على العلاقات الدولية والتنمية وصنع السلام في القرن الأفريقي وفضائه الأوسط بشرق أفريقيا. تعود أهمية الكتاب إلى مؤلفه **Alex de Waal** الذي يعرف الكثير عن منطقة القرن الأفريقي؛ وكان مراقبا ومشاركا فيما أسماه «وفرة القرن الأفريقي الخصبة من العنف والدمار» حيث تواجد في قاعات محادثات السلام الكبيرة، والتقى وعقد صداقات مع كبار رجال المنطقة وأجرى أحاديثا ولقاءات. ويسعى «دي وال» بنظرتة الثاقبة لوصف الحقيقة بكامل تفاصيلها.

ويكرس «دي وال» فكرته الرئيسية الواردة بين ثنايا هذا الكتاب المهم في:

«أن السياسة في القرن الأفريقي يمكن فهمها على أنها سوق عملتها المال والعنف،

تمثل فيها الدول عناصر مؤسسة تحليلية بشكل كبير. والجزء المهم في السياسة

وحدة الدراسات الأفريقية

هو تراكم ميزانية سياسية إلى أكبر حد ممكن: الأموال التقديرية التي يمكن لأي قائد إنفاقها على شراء الدعم، سواء على شكل أصوات أو بنادق على النقيض من ذلك **تصبح الميزانية العمومية مجرد عرض جانبي** ضمن هرمية السوق السياسية، فإن الجميع في هذا السوق مشتريين للاعبين أصغر وبائعين للاعبين أكبر: العنف مجرد وسيلة للمساومة وإبراز القيمة داخل السوق).

وتحتوي قائمة محتويات الكتاب على العناوين التالية:

- ١- مقدمة: ملاحظة بيزنس السلطة
 - ٢- السوق السياسية: السياسة هي البيزنس والبيزنس هو السياسة
 - ٣- القرن الأفريقي: حرب داخل القارة من ثلاثة فصول
 - ٤- دارفور: مزاد على الولاء
 - ٥- السودان: إدارة ما لا يمكن إدارته
 - ٦- جنوب السودان: ازدهار وتلاشي الفقاعة المتوقعة
 - ٧- الصومال: ورشة عمل ما بعد نهاية العالم
 - ٨- صوماليلاند: عقد بيزنس-اجتماعي
 - ٩- إرتيريا: متحف الحداثة
 - ١٠- إثيوبيا: هل ما زال بناء الدولة ممكنا؟
 - ١١- الرعاية والاحتضان الانتقالي: عملة الظل والسوق الإقليمية
 - ١٢- سياسة الأفكار: المفكرين وصناع السلام المرتبكين
- واعتمادا على خبرته الممتدة لثلاثين عاما في معالجة شئون السودان وإثيوبيا وارتيريا والصومال، فضلا عن خبرته كمشارك في محادثات سلام عالية المستوى، يقدم **أليكس دي وال** وصفا فريدا ودقيقا لكيفية قيام قادة هذه الدول بتسيير حكوماتها، وممارسة البيزنس الخاص بهم، وخوض الحروب، من وقت لآخر، وإبرام اتفاقية السلام. كما يوضح كيف يعمل القادة على نموذج للبيزنس، وتأمين الأموال لميزانيتهم السياسية التي يستخدمونها لاستئجار تحالفات مؤقتة من ضباط جيش وقادة مليشيات وزعماء قبائل ومسؤولي أحزاب بالسعر السائد.
- وأن هذه السوق السياسية تعمل على تآكل مؤسسات الحكومة، وتؤثر بالسلب على بناء الدولة وتتغذى بشكل أساسي على عوائد صادرات النفط وأموال المساعدات والمساعدة العسكرية الغربية المخصصة لمكافحة الإرهاب وحفظ السلام في هذا الدول.
- ويتناول الكتاب بالتحليل سياسية القرن الأفريقي فيما يتعلق بمفهوم **«السوق السياسية»** وهي ساحة يتبادل فيها البائعون والمشترون الولاء مقابل الموارد. وكل مشتري هو بائع في نفس الوقت.

وحدة الدراسات الأفريقية

وعندما يشرق السلام بعد فترات من العنف، تتحول السوق السياسية، مع وجود العديد من اللاعبين الذين يُحتمل أن يستخدموا التهديد المستمر بعدم الولاء وحتى العنف كوسيلة للاستفادة من الموارد لمصلحتهم ومصلحة زملائهم. وهو تفسير قوي لسبب استمرار الصراعات لفترات طويلة غالباً.

والكتاب إذ يقدم إطاراً مقبولاً لفهم كيف يصبح السلام ممكناً. في هذا الخصوص، فإنه يكمل الكتاب المهم الآخر عن الدوائر الانتخابية السياسية للحرب والسلام لـ «راجيش فينوجوبال» بشكل خاص. كما تغطي فصول دراسة الحالة في كتاب «دي وال» السودان وجنوب السودان والصومال وصوماليلاند وإرتريا وإثيوبيا.

ويوضح «دي وال» في الفصل الخاص بجنوب السودان، كيف أن الاستقرار السياسي المحلي قد اعتمد على نظام رعاية قائم على النفط، ثبت أنه غير مستدام، وعلى الولاءات الهشة. بالنظر إلى العادة الطويلة للخرطوم بشأن «شراء» العناصر الجامحة والمتمردة في الجنوب (وبشكل خاص بين عناصر النوير) وفي المقابل، عملت دولة جنوب السودان على تجنب DDR (نزع السلاح، وتسريح الجنود والتفكيك) واستقطاب مليشيات غير «حركة تحرير جنوب السودان» إلى الجيش والإنفاق بسخاء على القطاع العسكري والمسؤولين الحكوميين الآخرين.

وأن نظام الرعاية الناشئ هذا نتج عنه تقليص قدرة الإنفاق الحكومي الذي كان بإمكانه الوفاء باحتياجات أوسع وتهدئة كوارث ذات نطاق أوسع. وفي نفس الوقت، كانت جنوب السودان تعتمد بشكل مزمن على خطوط النفط ومعامل التكرير والبنية التحتية للموانئ في السودان نفسه، مما أدى بنظام الرعاية الطائفية المتوسع لجنوب السودان أن يواجه عقبات عند جفاف الإيرادات من النفط بعد الأزمة بين الشمال-الجنوب على توزيعها (نهاية الصفحة ٢١٨).

بينما يستفيد الفصل المخصص لإثيوبيا من وصول «دي وال» إلى رئيس الوزراء الأسبق «ميليس زينياوي» فينقل الانطباع بأن إثيوبيا تمثل على الأقل استثناء جزئياً لأوجه العمل الأكثر قسوة للسوق السياسية، على الرغم من أنه سيكون من المثير للاهتمام أن نعرف المزيد عن الأوجه الأكثر قسوة للسياسة في إثيوبيا، وكذلك سبب كون هذا البلد استثناءً.

ويتعين علينا القول إن التكامل بين المحفزات الاقتصادية والتحليل السياسي يمثل نقطة قوة لهذا الكتاب. ولكن هل يمكن التأكيد على هذا بالفعل؟ إن مجرد التأكيد على «الجشع، وليس المعاناة» من جانب «بول كوليير» وزملاءه، وتصويرهم للمتمردين كمجموعة من «ذوي البعد الواحد» يسعون للاستفادة من الظروف بأقصى درجة، يشير إلى جانب في عالم السياسة، يتناغم بشدة مع نموذج «العامل العقلاني» ولكن بالاعتماد على وجهة النظر هذه فقط، يمكن ملاحظة أنها تمثل نظير التحليل ذو التوجه الاقتصادي.

وحدة الدراسات الأفريقية

ولكن كتاب «دي وال» الذي بين أيدينا مختلف تماما. أولا، للأسباب التالية:
أولا: أنه كتاب ثري بالمعلومات الميدانية.
ثانيا، لأن تحليل السوق السياسية يشتمل على جميع اللاعبين الفاعلين (بما في ذلك العديد داخل الدولة) وليس المتمردين فقط.
ثالثا، أنه يؤكد على أن الهدف من الاستحواذ على الموارد هو سياسي في الغالب، بهدف شراء الولاء.
رابعا، أنه يقر بصراحة بأهمية المشاعر المتولدة عن العنف.
إضافة إلى أن الكتاب كان له أن يستفيد من زيادة الاهتمام بمدى شرعية المجموعات المتمردة وكيفية تشكيل وظهور وتآكل الميليشيات، وكذلك ما أنواع المشاكل التي تحرك هذه المجموعات المختلفة وكيف تتحول عندما يختار القادة توقيع الصفقات التي تفيدهم بشكل خاص.
ويتوسع مفهوم «السوق السياسية» لـ «دي وال» ليصل إلى المحيط الدولي، فيحاول استكشاف طموحه بشأن «السياسة الحقيقية» للقرن الأفريقي فيقول: إن تقديم أي رأي نظري متماسك عن الأحداث الجارية للسلطة بهذه المنطقة، التي تتسم بعدم الاستقرار السياسي المستمر. يساعد في التخلص من العوائق المؤسسية أو المتمركزة حول الدولة أو الديمقراطية المعتادة في التفسيرات التقليدية. ويضيف «دي وال» أكدت بدلا من ذلك على «بيزنس الأعمال» على النحو المعمول به في «السوق السياسية» للقرن الأفريقي المعاصر.
لقد كانت رؤية «دي وال» واضحة منذ البداية فيما يتعلق بأن هذه السوق ليست مجازا. ولكنها، إطار لمفهوم يمكن تطبيقه لإدراك تصرفات وأجندات مجموعة واسعة من «ممارسي البيزنس العسكري - السياسي» على جميع مستويات السياسة المحلية والوطنية والإقليمية.
وعلى الرغم من أن معظم فصول الكتاب تتناول دراسة حالات منفصلة تركز على الدولة-الشعب، فإن «دي وال» يؤسس نظريته على تصور سياسة القرن الأفريقي على أنها «غابة من الأشجار» كل منها يمثل مركزا سياسيا للاحتضان والرعاية؛ وينتشر بدرجات متفاوتة ويعبر الحدود غالبا.
وتخدم هذه الصورة، عند تجاوز مزية التحليل المعتادة للسياسة الرسمية بالمنطقة، مصطلحات الدولة، أو المؤسسات، والغرض الرسمي من عمليات التفاوض، وإعلانات «السلام». ويبرز بدلا منها المنطق المادي في المساومة بشأن أثمان الولاء في السوق السياسية. يستخدم الكتاب في هذا الجزء مفردات مألوفة لطلاب إدارة الأعمال، مقارنة بعالم السياسة. ويستمتع «دي وال» في تحطيم محفزات مديري بيزنس السياسية الذين يسعون إلى زيادة الإيرادات (الاحتضان والرعاية الخارجية والولاء المحلي) والحد من التكاليف (دفع أثمان شراء ذلك الولاء) أو تحقيق ولاء العميل عبر وضع مسميات وعلامات تجارية في صورة التحديات الشائعة أمام حائزي السلطة و/أو العنف المتوقع.

وحدة الدراسات الأفريقية

ويقول «دي وال» إن السوق السياسية ديناميكية بطبيعتها، وأن الأساس التقني-الاتصالي المتغير لعملياتها يزيد من المنافسة ويرفع سعر الولاء، مما يزيد من تسهيل وتحفيز دخول لاعبين جدد في الدوائر المتمردة، التي تبحث عن إيجار العنف منخفض الشدة المنتشر هنا. وأن هذا ليس مؤشرا على إخفاق هذا النظام ولكنه مكون جوهري له.

فالعنف في القرن الأفريقي يمثل وسيلة للمساومة، ويبرز نوايا وقدرات كبار اللاعبين بالسوق، والتي تتجسد غالبا في مؤتمرات «السلام» والتي لا تمثل سوى ساحات للمساومة بشأن تبادل الولاء عبر شبكات الرعاية الدولية والإقليمية والوطنية. وتمثل عوائد المعادن والهيدروكربونات محاور مهمة للصراع وتوزيع الغنائم. بينما يلعب التمويل الخارجي غير الشرعي، وتجارة الأسلحة الدولية و«الحرب العالمية على الإرهاب» والرعاية الأمنية من الغرب، أدوارا حاسمة ومؤثرة في تسيير ودعم المعاملات في هذه السوق والحفاظ على جميع «الميزانيات السياسية» لحائزي السلطة.

وتتمتع رؤية «دي وال» بدعم من حكايات تقدم ميراثا من الخبرة والاتصال مع النخبة التي تمثل موضوعا لهذا الوسم العرقي السياسي. ضمن عمل السوق السياسية، ويمكن رسم أفراد عديدون بمستويات مختلفة من الدهاء والقدرة على فهم الظروف السياسية، وقد تكون الصورة مثيرة للاهتمام؛ إذا كان هناك نية توضيح مدى تأثير الأفراد ذوي النفوذ في هذا السياق المادي. وهنا يتم تصوير «ميليس زيناوي» قائد المتمردين الذي أصبح وريثا لوزراء إثيوبيا، كمنظّر وممارس للسوق السياسية، وملتزم بالاستفادة من فهم لمخاطر في البحث عن أثمان الولاء؛ لتأسيس وضع قوي يمكنه من ممارسة صورة من صور الرعاية والاحتضان.

وأخيرا؛ أصبح القرن الأفريقي، الذي كان خاضعا في السابق لهيمنة ثلاثة دول هي السودان وإثيوبيا والصومال، منطقة تتكون بشكل أساسي من ست وحدات، إضافة إلى جنوب السودان وإريتريا ودولة صوماليلاند ذات الحكم الذاتي. وأنه على الرغم من تعاظم الاستقلال السياسي، فقد استمر العنف الذي أحبط جهود المجتمع الدولي لبناء دول ديمقراطية. وأن معهد السلام الأمريكي انخرط، على مدار عقدين، في السودان والمنطقة عبر مساعدة الدول في كتابة دساتيرها، وتدريب العاملين على حفظ السلام، وتقديم المنح لتعزيز بناء السلام، ودعم تطوير المحللين وصناع السلام من أبناء المنطقة، مع منحهم فرصا لعرض الزمالات. وقد أشارت رئيس معهد السلام «نانسي ليندبورج» إلى أن التحدي الذي يواجه أهداف السياسة الخارجية الأمريكية يكمن بالدول الهشة مثل الصومال حيث تتجذر الجماعات المسلحة مثل «حركة الشباب» والمجموعة المنبثقة عن «الدولة الإسلامية». ويذكر «دي وال» أن مؤشرات السلام والاستقلال في القرن الأفريقي تتحدد صعودا وهبوطا وفقا للتمويل، مستشهدا بحالة السودان. ففي السبعينات من القرن الماضي، عندما ازدادت أموال القروض والمساعدات المقدمة إلى السودان بمقدار ثلاثة أضعاف، أصبح من الممكن لهذا البلد

وحدة الدراسات الأفريقية

إبرام اتفاقية سلام أنهت الحرب الأهلية الأولى، وأدمجت الأحزاب الطائفية «لأن الكعكة كانت كبيرة» ولكن عندما تقلصت الميزانية، تمت الإطاحة بالرئيس «جعفر النميري» منذ أواسط الثمانيات في القرن الماضي، وحتى عام ١٩٩٩م، اعتمد السودان على ميزانية سنوية أقل من ١ مليار دولار، مما ضاعف من العنف. وعند اكتشاف البترول في أواخر التسعينات من القرض الماضي، قفز حجم الإنفاق السنوي إلى ١٢ مليار دولار خلال ست سنوات. ويذكر «دي وال» أن هذا ما جعل اتفاقية السلام الشاملة واتفاقية السلام في شرق السودان ممكنة، ومنذ انخفاض إيرادات البترول في آخر سنة ونصف، ظهرت مرة أخرى الأنماط القديمة للتمويل السياسي؛ فأصحاب الإسلام السياسي كانوا يحصلون على مساعدات مباشرة من المملكة العربية السعودية.